عناصر التعريب ... وقضيتنا الحضارية

الأستاذ الدكتور/ محمد توفيق الرخاوي (*)

لعلي أبدأ فأقدم نفسي فأقرر بأني كنت – في بدء حياتي- من أشد المعارضين للتعريب،كما كنت أحاربه بالحق والباطل وفي إمكاني أن أشير الآن – بعد أن هداني الله إلى الحق –إلى بعض النقاط التي قد تُثْري نظرتنا الموضوعية إلى التعريب[تدريس العلوم باللغة العربية] علماً بأن" تعريب التدريس يجب أن يعتبر جزءاً لا ينفصل عن تعريب المجتمع ككل "

أ- التدريس بغير العربية ظاهرة نشأت في ظروف لم تكن البلدان العربية تملك فيها إرادتها بالكامل ... فالوضع الصحيح الذي يقبله "المنطق السوي السليم هو أن تُدَرس العلوم على مختلف تفرعاتها بلغة قومها" . وكان التدريس بغير العربية جزءا من سياسة طويلة المدى تسعى إلى "تغريب"(بالغين) الأمة العربية، كما ترمي إلى تجريدها من أصالتها، واقتلاعها من منابعها، وهدم مقومات ذاتيتها.

ب- "دواعي التعريب"، في عمومها، تعني أن التعريب [التدريس بالعربية] محاولة عودة الأمور إلى وضعها الطبيعي [حيث لا يصح- في النهاية – إلا الصحيح]، كما أنه استرجاع لدور حضاري رائد تسلم العرب زمامه لقرون طوال...

ج- أما "عناصر التعريب " فيمكن إيجازها – في غير ما خلل – إلى أربعة هي:

(1) عنصر "لغوي تربوي" ...(2) عنصر "لغوي أجنبي" ... (3) عنصر "مصطلحي" [وهو ما أسميه العنصر "المشكلة"] ... و(4) عنصر حضاري".

[1] العنصر"اللغوي التربوي" : يتمثل في أن استيعاب المعرفة باللغة الأم هو – بكل تأكيد – أقرب منالا من استيعابها عن طريق أي لغة أجنبية كانت ... فإذا كانت العملية التعليمية التربوية في أساسها هي محاولة توصيل"معلومة ما" من المحاضر (بكسر الضاد) إلى المحاضَر. فالمحاضِر العربي– بطبيعته – "يفكر" بالعربية، ثم "يترجم" ما سوف يحاضره إلى اللغة الإنجليزية، ثم يحاول – جاهداً –أن يتكلم "(وهو في الحقيقة" يَتَلَعْثَم") باللغة الإنجليزية [.. فمعظمنا الآن لا يجيد هذه اللغة لا قراءة، ولا كتابة، ولا نطقاً! ! !]... ثم يَتلقى المحاضَر إليه، الكلام باللغة الإنجليزية [المُتَلَعْثِمَة]، ويضطر إلى عمل "ترجمة فورية" إلى اللغة العربية.. فاللغة (الأم) وعاء الفكر.. حتى يفهم (وهو في الغالب لا يفهم) المعلومة التي أراد المحاضر توصيلها إليه، وهكذا يضيع جهد جهيد بين التفكير.. فالترجمة الفورية.. فالتَّلَعْثُم (الإنجليزية) .. ثم التَّلقي.. فالترجمة الفورية.. فمحاولة الفهم (وهو في الغالب "لا" فَهْم)..

أما الطامة الكبرى فتتمثل في محاولة التفاهم في الاتجاه المضاد، حين يحاول الطالب أن يستفسر من أستاذه عن شيء [من الكثير الذي غمض عليه و لم

(*) أستاذ التشريح – طب القاهرة.

يفهمه! ! !]. والملاحظ لطرق تدريسنا الآن يُمْكنه أن يلاحظ – دون عناء – أننا [لا] ندرس بالعربية (طبعاً)، كما أننا – في الحقيقة [لا] ندرس بالإنجليزية ، كما هي "الإنجليزية" (أبداً ! !)، ولكننا ندرس خليطاً مستنكراً شاذاً من " الانجليزية [المَتَلَعْثِمَة] والعربية [المكسرة]، "واللاتينية" [التي لا نعلم منها الآن حتى ولو الشيء اليسير].

أما كيف تسير العملية التربوية في حالة التدريس باللغة الأم، فإن الأستاذ "يفكر ويتكلم" بالعربية.. والطالب "يسمع ويفهم " بالعربية في يسر وبساطة وسهولة و هو الشيء الطبيعي ولأنه، لا يصح إلا الصحيح، والحق أحق أن يُتَّبع... و" ما انتفع قوم بعلم لم يزرعوه في لغتهم".

(2) **العنصر "اللغوي الأجنبي"**:هو، في رأيي، عنصر شابه كثير من اللغو واجب الإيضاح، وإلقاء مزيد من الضوء عليه، حيث إن معارضي التعريب يسارعون في اتهام "التعريبيين" [بدون أي حق] بأنهم يحاربون اللغة "اللغات" الأجنبية، مما سيؤدي بنا (وبهم) إلى فقد الاتصال بالعالم من حولنا، وانغلاقنا على أنفسنا.. الخ، وأود أن أؤكد أنني لم أتناقش مع "تعريبي" واحد إلا ووجدت منه حماساً زائداً لأن نتعلم جميعاً (تعريبيين ومعارضين لغة أجنبية واحدة على الأقل (الانجليزية في حالتنا) تعلماً حقيقياً، بحيث يمكن أن نقرأ بها، ونفهم منها، ونتعامل مع الأجانب عن طريقها بلسان إنجليزي مبين، فالتعريبيون – على عمومهم – يعلمون ويقررون ويكادون يُقْسِمُون (غير حانثين) أن التعريب وتعلم لغة أجنبية (تعلماً حقيقياً) يجب أن يسيرا جنبا إلى جنب كَفَرَسَيْ رِهَان، – وأن التعريبيين أشد حماساً – من كثير من غيرهم– لتدريس "اللغة الأجنبية" [كلغة أجنبية] وليس للتدريس " باللغة الأجنبية" لطلاب العربية.. فالموقف مختلف تماماً بين تدريس "لغة أجنبية".. وتدريس العلوم المختلفة "باللغة الأجنبية".

(3) **العنصر "المصطلحي"**: هذا العنصر كذلك شابه "ضباب" كثيف، وتضاربت حوله الآراء... فهناك من يخلو له أن يتهم اللغة العربية بأنها "قاصرة" عن أداء رسالتها التعليمية، لعجزها عن مسايرة الجديد من المصطلحات الحديثة، والتي تستحدث كل يوم [وإن نكن صادقين فكل ساعة]، حتى نفى إلينا الأمر شاعرنا العربي العظيم حافظ إبراهيم حين قال يصف اللغة العربية:

" فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتَنْسيق أسماء لمخترعات

أما الحقيقة، فهي أن اللغة العربية مثقلة بمترادفاتها، لدرجة تجعل المشكلة تتمثل في كثرة احتمالات استعمال مصطلحات عربية "متماثلة" لمصطلح إنجليزي / لاتيني واحد.. وتكون هذه "الزحمة" المصطلحية مرة أخرى سلاحاً في يد من يحاول عرقلة مسيرة التعريب ...

الغريب في الأمر أن هناك "عِلْمِيّا" ما يثبت أن اللغة العربية الفصحى هي أم اللغات الهندية والأوربية وأصل الكلام (د. تحية عبد العزيز)، فقد أتمت الدكتورة "تحية" مقارنة بين ثلاث لغات قديمة هي: العربية الفصحى، واللاتينية، والسكسونية (وهي اللغة الجرمانية التي بنيت عليها اللغة الإنجليزية الحديثة) حيث إن هذه اللغات الثلاث فيها نسب كبيرة جداً من الكلمات المشتركة، ولا يُقْبل ذلك إلا لو كانت هذه اللغات الثلاث من أصل واحد، وقد أثبتت هذه الدراسة المقارنة أن اللغتين اللاتينية والسكسونية تمثلان شطراً فقط من العربية الفصحى. فاللغة العربية كانت الأصل والمنبع بينما تمثل اللغات الأخرى قنوات وروافد لها...[فمثلا حوالي 80 % من

أفعال اللغة السكسونية، و75 % من أفعال اللغة اللاتينية تأتي من أصل عربي]. ويؤيد هذا أن عدد الجذور في اللغة العربية يزيد على الستة عشر ألف(16000) جذر، بينما اللغة السكسونية بها ما يزيد قليلاً على ألفي (2000) جذر، في حين لا تحتوي اللغة اللاتينية إلا على ثمانمائة (800) جذر، مع ملاحظة هامة أخرى وهي أن اللغة العربية تخرج منها مشتقات وتراكيب بلا عدد [خذ مثلا اللفظ الإنجليزي " tall " بمعنى "طويل" [وبعد ملاحظة التشابه اللفظي بين الكلمتين] حاول أن تحسب كم من المشتقات والتراكيب العربية يمكن أن تخرج من "طويل" ومثال ذلك (طال – يطول – طائل – طويل – مستطيل ... الخ].

أين نحن إذن من هذا الزحام والغنى اللغوي في العربية إذا قورن بالضيق والفقر النسبي في اللغة الإنجليزية .. الحقيقة أن هذا الزخم اللغوي يترك أثره واضحاً في صعوبة اتخاذ مصطلح واحد، بادئ ذي بدء، يتفق عليه الجميع، وعليه فإني أدلي بدولي في ما يمكن عمله إزاء هذا "الثراء المصطلحي" وأثره في "عرقلة " مسيرة التعريب .. وخصوصاً أن من طبعنا أن "نتفق كثيراً على ألا نتفق !!".

لعل من العملي أن نحاول – الآن وجميعاً – كل في مجاله – الموافقة على اتباع ما أود أن أطلق عليه الخطة "الخمسية الثلاثية ": (1) خمس سنوات ندرس باللغة العربية مع البقاء على استعمال المصطلح "الإنجليزي/ اللاتيني" كما هو ... (2) ثم خمس سنوات تالية نستعمل فيها ما يمكن أن أطلق عليه المصطلح العربي "الحر"...(3) ثم نجلس معا – كل في اختصاصه – بعد خمس سنوات أخرى لنتفق على مصطلح "واحد" يقبله ويرتضيه الجميع. أي أنه لا ضرورة للتشبث "بالإجماع" الآن، ولكن هناك ضرورة ماسة وملحة إلى الدعوة "الاجتماع" فيما بعد، ربما مرة كل خمس سنوات. وكما أن "اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية" فإن "اختلاف المصطلح يجب ألا يعرقل للتعريب مسيرة ". علما بأن الاختلاف – في هذه المرحلة – هو في حقيقته علامة صحة.. فلابد – في هذه المرحلة – أن نقبل فيما بيننا أن "رأيي (مصطلحي) صواب يحتمل الخطأ ، بينما رأيك (مصطلحك) خطأ يحتمل الصواب" والأفضل أن يكون شعارنا:[اختياري (مصطلحي واختيارك (مصطلحك) صوابان يحتملان "الأفضل].

.....

والسبع .. والهزيز..والضَّيْغَم.. والضَّرْغام ... والقسورة... والرئبال.. والورد [كل اسم منها يعكس صفة "مختلفة" في الأسد لها ظلها ورنينها وإيقاعها].

(4) العنصر "الحضاري": مما لا شك فيه، أن الكثير منا يتحرك اليوم من موقف "المتخاذل " التابع تبعية مَرَضيَّة للغرب.. فهناك لدى الكثير منا – ولنكن صرحاء مع أنفسنا – رغبة دفينة [بوعينا الكامل أو بدونه] "تَستَدْعي الاستعمار". مما قد أسماه الفيلسوف والمفكر الجزائري مالك بن نبي "القابلية للاستعمار ".. تنشأ هذه "القابلية للاستعمار" من ثقافة بائسة يملؤها إحساس تعيس بالدُّونية إذا تعلق الأمر بشُخُوصنا وإمكانياتنا، كما يشيع فيها إحساس غريب بالاستعلاء إذا تعلق الأمر بالغرب، وكل ما هو غربي.. هذا الإحساس الذي يمكن أن نترجمه إلى ما معناه " نحن لا نصلح لشيء، بينما الغرب يصلح لكل شيء". أدى هذا الإحساس المَرَضي إلى تصور أن أي مشكلة إذا استعصى حلها علينا كعرب، فحلها موجود وجاهز عند الغرب. وأصاب ذلك [ضمن ما أصاب) نظرة الكثير منا إلى اللغة العربية على أنها لغة (أصولية) لا تنفع لهذا العصر. وانظر كيف أصابتنا حُمَّى "كُو" فأصبحت لدينا شركات مثل "عصامكو" (شركة عصام)

و"نادركو"(شركة نادر) و"صادقكو" (شركة صادق غبور)و "أرانبكو" (شركة للأرانب) و "إسلامكو" (شركة للسياحة الإسلامية") و "تنظيفكو" "شركة للتنظيف"... إلى آخر هذا السَّيْل من الـ "كُو"... إلى غير ذلك من شركات مثل "مُودرْن هَاوس"(البيت الحديث)و "هَابِي هُوم" (البيت السعيد) و "كارْبِت سِيتِي"(مدينة السجاد) و"دَرَايْ كلين" (التنظيف الجاف)... الخ، مما أدى إلى التدهور المستمر في مستوى أداء اللغة لمهمتها الأساسية كَوسيلة التخاطب، وكونها الوعاء الفكري والثقافي لحضارتنا...

وبينما أكتب هذه الكلمات عن العنصر "الحضاري" أقرأ في "مواقف" الأستاذ أنيس منصور بصحيفة الأهرام " ... وتندهش كيف أننا لا نعرف لغتنا.. كيف أننا نستهين بها إلى هذه الدرجة ! ... كأن اللغة العربية هي اللغة الثالثة أو الرابعة... وتندهش أكثر عندما تعرف أنه لا توجد عند كثير من الشباب لا لغة أولى ولا ثانية. أو أنك تجد من يحسن النطق بالإنجليزية أو الفرنسية ويتباهى بأنه "مش ولا بد في اللغة العربية"... دون خجل ودون أن يصفعه أحد على خده الأيمن والأيسر و... ! ثم يتساءل الأستاذ أنيس منصور .. " أين الخطأ ؟ ومتى بدأ ؟ وكيف استمر ؟ .. وكيف يمكن إصلاحه ؟

وأعود فأكرر ما بدأت به هذا المقال من أن "تعريب التدريس يجب أن يعتبر جزءاً لا ينفصل عن تعريب المجتمع ككل ". وأجعله فصل الختام.